

التشكل التاريخي للفكر الاستعماري الحديث وعلاقته بمفكري التنوير الفرنسيين (الجزائر نموذجا)

The historical development of modern colonial thought and its relationship with the thinkers of the French Enlightenment (Algeria as a case study)

د. صليحة بوزيد

أستاذة محاضرة أ

المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة -الجزائر

الجزائر

Email : bouzid.saliha@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2026/07/24 تاريخ القبول: 2026/09/03 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على تُمثّل فلسفة عصر التنوير في فرنسا خلال القرن الثامن عشر واحدة من أهم المحطات الفكرية في التاريخ الإنساني الحديث؛ فقد أرست دعائم مفاهيم كبرى كالعقلانية، والحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان الكونية، وشكّلت القطيعة المفهومية مع الاستبداد والتيوقراطية. غير أن هذه المنظومة الفكرية ذاتها شهدت عند احتكاكها بالعالم غير الأوروبي انزلاقاً مفهوماً وتناقضاً جوهرياً؛ حيث تحولت "كونية العقل" من أداة لتحرير الإنسان إلى مرجعية لترسيم التراتبية بين الشعوب.

كلمات مفتاحية: فلسفة الأنوار- مونتسكيو- فولتير- جون جاك روسو- الفكر الاستعماري- الحركة الاستعمار

Abstract:

This study aims to shed light on the philosophy of the French Enlightenment during the 18th century, one of the most significant intellectual milestones in modern human history; it laid the foundations for major concepts such as rationalism, liberty, equality and universal human rights, and marked a conceptual break with despotism and theocracy. However, when this very intellectual system came into contact with the non-European world, it underwent a conceptual shift and a fundamental contradiction; 'the universality of reason' transformed from a tool for human liberation into a framework for establishing hierarchies among peoples.

Keywords: France; the philosophy of lights; Europe; colonial movement; Montesquieu and Rousseau.

*المؤلف المرسل: صليحة بوزيد

شهد القرن الثامن عشر في أوروبا تحولاً فكرياً ومحورياً تمثل في بزوغ عصر التنوير، الذي جعل من العقل والاخاء والحرية والتقدم قيماً لإعادة بناء الإنسان والمجتمع. غير أن هذا الفضاء الفكري ذات السمة الراقية ونبيلة التي تبنته ثلة من المفكرين الفرنسيون لم يكن معزولاً عن التحولات الجيوسياسية والاقتصادية التي عاشتها أوروبا في القرن التاسع عشر إذ تزامن هذا الانفجار العقلائي مع توسع الإمبراطورية الفرنسية وتشكّل ملامح الفكر الاستعماري الحديث. وفي هذا السياق، لم يُبنَ الاستعمار الحديث على مجرد الغلبة العسكرية أو الدافع الاقتصادي المباشر، بل احتاج إلى غطاء فلسفي وأخلاقي يُبرر السيطرة ويُسبغ عليها الطابع الحضاري والضرورة التاريخية.

تكمّن إشكالية الموضوع في التداخل المعقد بين الخطاب الفلسفي التنويري الداعي إلى الانعتاق، وبين التشكل التاريخي للفكر الاستعماري الحديث. فبينما كان فلاسفة التنوير يفككون بنى التخلف والسيطرة داخل أوروبا، أسهمت أطروحاتهم عبر مفاهيم مثل "سُلم الحضارات"، في صياغة الغطاء الأخلاقي والفكري لما عُرف لاحقاً بـ "مهمة التمدين" (La Mission Civilisatrice) التي تزامن ظهورها مع الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي المظلة التي تسوغ بموجها الإمبراطوريات الاستعمارية، وفي مقدمتها فرنسا، سلب إرادة الشعوب وتجريدها من حقوقها باسم نقلها من مرحلة الجهل والتخلف إلى مرحلة العقل والتمدن.

تتمحور إشكالية هذا المقال في تلك المفارقة الأكاديمية بين الشعارات التنويرية (كالحرية والمساواة) وبين التبريرات الأيديولوجية التي وُظفت لإخضاع الشعوب غير الأوروبية باسم "التقدم" و"التمدن" خاصة خلال القرن التاسع عشر وهي الفترة التي اعتمدها في الدراسة. ومن هذا المنطلق، تتبلور الإشكالية الرئيسية في السؤال التالي: كيف تحول المبرر الاستعماري من المرجعية الدينية/المركنتيلية إلى المرجعية العلمانية/العقلانية؟ وما مدى تكريس الفكر الاستعماري مقولة "المهمة التمدينية" انطلاقاً من المبادئ التنويرية؟

اعتمدنا في بحثنا هذا على الفرضية القائمة على أن الفكر الاستعماري الحديث حوّل المفاهيم التنويرية (كالحرية والعقل) إلى نسق مرجعي يكرّس "المركزية الأوروبية"، مما أتاح إعادة تصنيف الشعوب في سلم هرمي حضاري.

يسعى هذا المقال إلى تحقيق أهداف بحثية تتمثل في محاولة تفكيك المفارقة الفكرية بين المنظومة التنويرية الإنسانية والنزعة التوسعية الاستعمارية لفرنسا. وكيف تطور الخطاب الاستعماري وتحوله من السيطرة المادية إلى التبرير الفلسفي والأخلاقي. أما المنهجية المتبعة يعتمد البحث على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي؛ بهدف تتبع التشكل التاريخي للفكر الاستعماري في بيئته الزمنية، إلى جانب لاستنطاق النصوص التأسيسية لرواد التنوير الفرنسي واستكشاف المقولات الضمنية والصريحة المتعلقة بالآخر، والتمدن، والاستعمار.

1- الوضع العام في أوروبا عامة وفرنسا خاصة في القرن الثامن عشر

قبل التطرق إلى دراسة عصر التنوير يجب التطرق إلى الأوضاع السائدة في أوروبا وبشكل خاص في إنجلترا وفرنسا بصفتها الدولتين اللتين عرفتتا نهضة فكرية وصراعات داخلية وحروب أهلية.

فقد عرفت إنجلترا ثورة مجيدة أصبحت فيها الطبقة الارستقراطية تختار أخيار الدولة وأخيار الطبقة الحاكمة، و في القرن التاسع عشر بعد ثورة 1868م تأسست الحكومة على أساس أن الملك يحكم من خلال وزرائه الذين ينالوا التزكية من

البرلمان، ولكن بعد وفاة الملكة آن سنة 1714م، أصبح حزب الأحرار يختار الملك الذي يناسبه و يدير شؤون البلاد بنفسه، أما حزب المحافظين فيقوم بدور المعارضة، وتخلّى عن نظرية الحق المقدس للملك و فكرة إعادة آل ستيوارت إلى الحكم ومن جهته حزب الأحرار جدد ثقته في الملك و أصبح لا يمانع في قيام حكومة مركزية قوية ليتحول بذلك الصراع من خلافات سياسية إلى من يعتلي الكرسي الحكم و صار بذلك النظام الدستوري مقبولا من كل الأطراف.

أما في فرنسا فإن الملك وحاشيته يتلاعبون بالدولة بدون حسيب ولا رقيب الشيء الذي خلق طبقة ثرية من رجال الدين والنبلاء الذين كانوا يعيشون عالة على الشعب الفرنسي، بحيث كانوا يستولون على دخل الفلاحين وتملكون نصف الأراضي ومعفيين من دفع الضرائب، والنبلاء كانوا يحتكرون العدالة.

أما الفرد، الرعية، فعليه أن يطيع هذه الإرادة من خضوعاً مطلقاً لدواعي المصلحة العليا. كانت إذن سلطة مستبدة في جوهرها، ويظهر ذلك ما ورد على الملك لويس الخامس عشر الذي قال أمام برلمان باريس في عام 1766م: " في شخصي فقط تكمن السلطة العليا، ومن شخصي بالذات تستمد مجالسي وجودها وسلطتها، وإلى فقط تعود السلطة التشريعية بلا شريك ولا رقيب، وعني ينبثق النظام العام برمته." (فولغين، 2006)

في القرن الثامن عشر حاول الملك الفرنسي إتباع سياسة خارجية مبنية على المواجهة والتحدي دون التفكير في المشاكل الداخلية، ودخلت فرنسا في صراع مع الدول الكبرى لبسط نفوذها وتنشيط تجارتها.

أسهم في انجاز دائرة المعارف 130 شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء من الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من حملة الألقاب الرسمية، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية المستنيرة، فكانت مؤلفاً برجوازيّاً. وكان يضم أهم الفلاسفة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء، وعليه كان تفكير العصر بورجوازيّاً.

وعليه فإن القرن الثامن عشر، شرع الفكر الناقد بإنكار كل شيء، بزعزعة كل شيء، بإصلاح كل شيء: الفلسفة الدينية، فلسفة العلوم، فلسفة الطبيعة، فلسفة الفكر، فلسفة الأخلاق. والمميز أيضاً أن كل فلاسفة القرن الثامن عشر كانت لهم كلمة حول السياسة، فاكتفى بعضهم بتلميحات متسترة، واتخذ بعضهم أسلوب المجابهة عن طريق نظرية الدولة والقانون، وتجلّى هذا الاستعداد خاصة في ثلاث مؤلفات كبرى: روح الشرائع لمونتسكيو، العقد الاجتماعي لروسو، لوحة تاريخية لتقدم الفكر البشري لكوندورسييه. (كريسون، 1982)

تجدد الإشارة في مستهل هذا العمل، إلى أنه، كما أن فرنسا غير منفصلة عن سواها من بلدان العالم، كذلك فلسفتها غير منفصلة عن سائر النشاطات الإنسانية، ولهذا الفلسفة الفرنسية موصولة السبب بالفكر الأوروبي والعالمي معاً، ولنحتسب إلا يغيب عن بالنا بأن تاريخ الفلسفة غير منفصل عن تاريخ العلم، فنحن لا نستطيع فهم فولتير دون الالتفات إلى حالة العلم في عصره.

ومن هنا كانت محاولتنا هذه، وهي تناول الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر وكيف أثر فلاسفة ذلك العصر على الوضع السياسي في فرنسا وعلى سياستها الاستعمارية؟.

إن عدم أخذ المشاكل الداخلية مأخذ الحد وانضمام الطبقة البرجوازية المحرومة من النفوذ السياسي مع الجبهة الشعبية عبد الطريق لقيام الثورة الفرنسية. يمكن القول ان قبل عصر الاستنارة، كان الاستعمار الأوروبي يتمحور حول: -الدافع الديني التنصيري للشعوب من جهة، ومن جهة ثانية كان الدافع الاقتصادي التجاري

الميركانتيلي القائم على السيطرة على الطرق البحرية، وتراكم المعادن النفيسة، والمزارع القائمة على العبودية. ومع بزوغ الفكر التنويري، حدث تحول بنيوي في تعريف الاستعمار: لم يعد الهدف الاستغلال الاقتصادي أو الخلاص الديني المباشر فحسب، بل أُسس الاستعمار كـ "مشروع لتحديث العالم وتمدينه"

2- الفلاسفة الفرنسيون في عصر الاستنارة وفلسفتهم

إن الشخصيات الفرنسية التي نحاول في هذا العرض تقديمها يعتبروا من أبرز فلاسفة عصر التنوير في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، نظرا لتأثير أفكار هؤلاء على المجتمع الأوروبي وفي المجتمعات الأخرى التي حاولت تغيير مجرى حياتها. سيتم التركيز على ثلاث فلاسفة هم: فولتير، جون جاك روسو، مونتسكيو.

1-2: فولتير، فرانسوا: (1694م- 1778)

لعب فولتير، في الصراع التاريخي الذي خاض غماره مفكرو القرن الثامن عشر البورجوازيون ضد قوى المجتمع الإقطاعي القديم دورا استثنائياً وأساسياً على أكثر من صعيد، فقد كان واحد من مؤسسي حركة الأنوار وأكبر أبطالها نشاطاً وفعالية، وبهذا فهو الوجه المحوري لهذه الحقبة الفريدة والبارزة من تاريخ البشرية.

فولتير فيلسوف ومفكر فرنسي، اسمه الحقيقي فرانسوا ماري أرويه Arouet، ولد في عهد لويس الرابع عشر، حيث كانت السلطة الملكية المطلقة في أوجها، نشأ في باريس من أسرة بورجوازية، كانت أسرة أبيه تضم تجاراً ودباغين وبائعي الأقمشة، ارتقى أباه إلى مرتبة كاتب عدل، يتعامل مع زبائن من ذوي الشأن والجاه، أدخله والده حرصاً منه على مستقبله إلى كلية لويس الأكبر اليسوعية التي كانت تتمتع بسمعة طيبة. منذ سن مبكرة، اكتشفت مواهبه الخارقة فأصبح يقصد الصالونات الارستقراطية، فأصبح معروفاً كشاعر ورجل فكر.

اتهم بإهانة الوصي فيليب الثاني دوق أورليان، فعوقب بالسجن في الباستيل أحد عشر شهراً، وهناك أعاد كتابة مسرحية "أوديب"، وبدأ ملحمة عن هنري الرابع، فنال شهرة كبيرة. في عام 1726م أدين وسجن في الباستيل لاثامه بإهانة أحد النبلاء، وأطلق سراحه عندما وعد بالرحيل إلى إنجلترا حيث قضى فيها عامين، فأعجب بحرية الفكر السائدة هناك، كما أعجب بأفكار نيوتن ولوك، ألف رسائله عن الشعب الانجليزي بعنوان "رسائل فلسفية" 1732م، كتب أيضاً تاريخ شارل 12، وهو من أروع كتب التراجم، بفضل مدام دو بومبادور أصبح فولتير مؤرخاً في البلاط الملك، وعضواً بالأكاديمية الفرنسية، اشترك في دائرة المعارف الفرنسية، وكتب روايات فلسفية بأسلوب ساخر، منها "كانديد" 1759م و "زادج"، دفن في مقبرة العظماء "البانثيون". جمعت آثاره في سبعين مجلداً ونشرت بعد وفاته. (الموسوعة العربية الميسرة، 2001) (الموسوعة العربية الميسرة، 2001) (الموسوعة العربية الميسرة، 2001)

فلسفته السياسية

لم يكن فولتير فيلسوفاً نموذجياً على شاكلة الفلاسفة المشغولين ببناء منهج عقلي وبناء فلسفي محكم بقدر انشغاله بهدم الثوابت والتقاليد البالية التي تمنع التفكير الحر من انطلاقته، فكان صراعه مع الكنيسة ليس باعتباره مهرطقاً أو خارجاً عن تقاليد الكاثوليكية، بل كان هجوم فولتير منصباً على التدخل الكنسي في شؤون الحياة اليومية للفرنسيين، ومنتقداً الوجه القاسي للكنيسة الكاثوليكية لا تعرف التسامح.

اعتبر الخرافات من صنع وابتكار القساوسة والكهنة فهم الذين صنعوا علم اللاهوت كما أن الخلافات هي من صنع اللاهوت وهي سبب النزاعات المريعة والحروب الدينية، وفضح فولتير المجتمع الفرنسي في كتابه «رسائل إنكليزية» الذي عرف فيما بعد بـ«رسائل فلسفية» وقارنه بالمجتمع الإنكليزي الذي تغنى بفضائله، وانتصر لوضع انكلترا المتقدم على حساب وضع بلاده المتأخروصب جام غضبه على فرنسا والفرنسيين لأنهم يأنفون عن سلوك درب العقل والتسامح الديني. (رسل، 1977)

كان فولتير ساخطا على الحكم المستبد السائد في فرنسا ، كما اعتبرت طبقة نبلاء طبقة مغرورة بنفسها وعاطلة عن العمل، ووصف وضع التجارة والفلاحة المزري حيث كان للإقطاعيين دور بارزا فيهما ، بل قارن بين وضع فرنسا و انجلترا ، وبذلك كشف فولتير زيف المجتمع الفرنسي بكل عيوبه ونفاقه وزيفه وتخلفه، ويكفيه أنه قوض أركان صرح الخرافة من أساسها، فقد استغل مواهبه الأولى في المحاماة للدفاع عن قضايا العقل، فلولم يكن فولتير مفكرا كبيرا لكان واحداً من أعظم المحامين في العالم، لذلك فقد كان تفنيده لفكر الخرافة ودفاعه عن قيم العقل والتفكير الحر قويا جذابا. صحيح أن تأثير فولتير في هذا المضمار لم يمن بقوة تأثير مونتسكيو وروسو، لكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه من الممكن تجاهله والتغاضي عنه، ولا جدال في أن فولتير لم يورث الأجيال اللاحقة كتاباً واحداً مماثلاً لـ "روح الشرائع" أو "العقد الاجتماعي" فملاحظاته حول القضايا الاجتماعية والسياسية مبعثرة في مؤلفات شتى، ومختلفة بتأملاته.

2-2: مونتسكيو:

ولد البارون دو لابريد مونتسكيو شارل لويس دُو سِكوندا في 18 جانفي 1689م، وكانت ولدته في قصر لابريد بالقرب من مدينة بوردو الفرنسية الذي يبعد عنها بعشرة أميال، كان اسم أبيه جاك دُو سِكوندا، وأمه فرانسواز دوينيل، تعود أصول عائلة أبيه إلى القرن السادس عشر، وهي من أهل القضاة إجمالاً، فقد كان جده وعمه قاضيا في برلمان بوردو وهو ما وصل به حياته، كان فخور بنبالتة والنبالة في نظره هي أفضل دعم للملكية وأفضل ضمان للحرية " لا ملك لا نبالة لا نبالة لا ملك، بل مستبداً متحكماً. " (حاروش، 2009)

عرف شارل لويس في صباه بـ " مسيو دُو لابريد"، توفيت أمه حين كان في السابعة من عمره، فلما بلغ الحادية عشر أدخل مدرسة أوزاتوريان، حيث مكث فيها خمس سنوات، أظهر خلالها ميله للتاريخ. توفي أبوه في سنة 1713م، وبعد مضي عام عن وفاته أصبح مونتسكيو. قاضيا في برلمان بوردو، ثم عام بعد ذلك تزوج ابنة فارس نبيل من منظمة سان لويس اسمها حنة لارتيج، رزق منها ابناً وابنتين. (مونتسكيو، 1953) توفي عمه جان باتيست سنة 1716م، فأصبح رئيساً للمحكمة وورث جميع أمواله وأصبح يلقب بـ مونتسكيو. كان مولعا بالبحث التاريخي والدراسات القديمة، وهذا ما جعله ينتسب إلى الأكاديمية الرَّجَوِيَّة ((provincial التي أنشئت في بوردو وقُبل فيها في أبريل 1716م، حيث ألقى فيها بعد قبوله بحثاً حول " سياسة الرومان في الدين". كما أنصرف أيضا للعمل في الحقل الأدبي والعلم، فقد أخرج سنة 1721م كتاب " الرسائل الفارسية " الذي لاقى إقبالا واستحساناً كبيرين، وقد طبع أربع مرات في عامه الأول.

استقر بعدها في باريس وانخرط في نادي "الانترسول" المشهور، ثم قُبل عضواً في الأكاديمية الفرنسية بتاريخ 24 جانفي 1728م. سافر الى مختلف الدول الأوروبية باحثاً في الدساتير والنظم، فطاف في النمسا وهنغاريا، ثم إيطاليا والبندقية حيث أقام نحو عام، توجه بعدها إلى إنجلترا حيث لبث فيها ثمانية عشر شهراً، فأعجب بأخلاق الانجليز وسياستهم، اختارته إنجلترا ليكون عضواً في الأكاديمية الملكية بلندن، اعتبر النظام الانجليزي مثلاً للحكومة الصالحة. عاد مونتسكيو إلى فرنسا وشرع في كتابة أشهر كتبه "روح الشرائع"، كما ألف سنة 1734م كتاب "تأملات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم"، في 1746م عين عضواً في مجمع العلوم الملكي ببرلين، وفي 1748م طبع كتابه "روح الشرائع" في جنيف، وهو كتاب مؤلفاً من واحد وثلاثين باباً موزعاً بين ستة أجزاء، لم يؤلف في الغرب ما يفوقه، وهو أعظم كتاب فرنسي في القرن الثامن عشر، وكتاب جامع لفلسفة التشريع وحكمة التاريخ والفقه الدستوري، وهو أكثر الكتب تأثيراً في الأزمنة التي جاءت بعده. فقد استوحى الدساتير الفرنسية عند قيام الثورة الفرنسية من روح الشرائع، وكان له الأثر البالغ في وضع دساتير العالم حتى يومنا هذا، ومن الواضح انتحال الدساتير الأمريكية لمبادئه في فصل السلطات على الخصوص، وروح الشرائع هو الأثر الذي عُدَّ به مونتسكيو واضع علم السياسة وعلم الاجتماع في الغرب. (مونتسكيو، 1953)

إن مونتسكيو، هو، على التحديد، أول فلاسفة القرن الثامن عشر وهو ينتمي إلى اثنين من كبار مذاهب القرن السابع عشر وهما مذهب ملبرانشو ومذهب ليبنتز، ولهذا فلسفة القرن الثامن عشر كانت امتداداً لما قبلها. إن فكرة طبيعة الأشياء، وفكرة القوانين من حيث أنها نسب وعلاقات متنوعة عن هذه الطبيعة، تسودان فلسفة مونتسكيو السياسية. وهو يعلم، إلى ذلك أن نتائج قوانينه تختلف بحسب الأحوال العامة. وبذلك يكون قد جمع بين خصوصية النتائج، وعمومية الأسباب. (فال، 1988)

فلسفته السياسية

إن إعلان مونتسكيو على أنه مؤسس علم السياسة هو حقيقة حاصلة. لقد قالها أوغست كانط وأعاد قولها دوركهيم ولم ينكرها أحد جدياً. (ألتوسير، 2006)

حارب مونتسكيو من خلال كتابه "روح الشرائع" محاولات الإصلاح، حيث حاول أن يثبت أن الدساتير السياسية ترتبط، وفاقاً لنواميس طبيعية حقيقية، بظروف الإقليم، والتربة، ونوع الحياة، و. طبع الشعوب، وأخلاقها، ودينها، الخ. فاتخذ ذلك حجة للقول بأنه لا يجوز مس الدستور الفرنسي، عظم دستور الانجليزي لان السلطة التنفيذية يتولاها الملك والتشريعية ممثلو الأمة، أما السلطة القضائية يتولاها القضاة والتي تكون حكماً وحارساً للدستور. (Roland MOUSNIER, 1967)

كما حمل كتابه أيضاً بعض المعاني التي تسعى إلى تفسير مظاهر الاستعمار وتبرير سياسته فقد شجع الأوروبيون على استعباد شعوب إفريقيا لاستغلالها نعت أيهم بصفات شنيعة قائلين جماعات سوداء البشرية من أخمص القدم إلى قمة الرأس وانفها أفطس شنيع (De L'esprit des lois, chapitre V, 1758).

المعروف بـ «مجنون جنيف» لغرابة أطواره، سيكون واحداً من أهم منظري الثورة إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، بل إن مؤلفه الرئيسي «العقد الاجتماعي» سيعد بلا جدال «إنجيل الثورة» الفرنسية. حياة روسو كانت السبب فيما ناله من تجاهل حيناً وصخب وتقدير في أحيان أخرى، فروسو الذي ولد لأسرة تنتمي إلى البرجوازية في مدينة جنيف، كان أبوه ساعاتي، تطفل في أغلب الأحيان على العظماء، تميز بخجله، ومن ثم بكبريائه، كما تميز بسعة الخيلة حيث صنع منها عوالم مصنوعة لأجله، في 1750م، اهتدى إلى طريقة، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته أكاديمية ديجون، تشجع روسو بموافقة ديدرو، و عالج الموضوع المطروح " هل أسهم إحياء العلوم والفنون في تنقية الأخلاق"، فاز بالجائزة في 23 أوت 1750م، حيث دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة " لقد فسدت نفوسنا بمقدار تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال". (لابروس، 1994) هاجر إلى باريس حيث الأضواء والشهرة منخرطاً في حياة الصالونات التي سيطرت على الحياة الثقافية الباريسية، وانغمس في تلك الحياة حتى الثمالة ثم انقلبه على هذا النمط من الحياة ووصفه بأقذع الألفاظ، بشكل فصله هو في كتابه الشهير «الاعترافات» الذي يعد نسيج وحدة في أدب السيرة الذاتية، في 1754م " خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر" عرف هذا الكتاب أوسع انتشار عرفته مؤلفاته وأسهم من أي مؤلف آخر في نشر مبدأ المساواة.

فلسفته السياسية

يبدأ روسو مشواره في النظرية السياسية بتأسيسه لفكرة السيادة عبر منظومة جديدة، وإن كانت هيئتها العقد الاجتماعي، إلا أنه لا يتم فيها التنازل عن تلك السيادة ولا يقسيمها، كما كان الفلاسفة السابقين، إذ تشكل الإرادة العامة روح الشعب ومصلحته العليا وهي حاملة السيادة، ويحصل ذلك بحسب روسو بالتعاقد الاجتماعي في حالته الطبيعية التي ينعم فيها الأفراد بالهدوء والسلام والاستقرار، وببداية تتطور حياة الإنسان، ذلك أن روسو يؤمن بالرؤية الأرسطية في تكوين المجتمع من الأسرة إلى الدولة.

يعد العقد الاجتماعي إنجيل الثورة والوثيقة الأساسية للفلسفة السياسية للجمهورية الفرنسية، حيث شكلت نظريات روسو الآراء السياسية لليعاقبة. بل أثر العقد الاجتماعي على الأذهان والعقول عندما كانت الثورة البورجوازية في أوجها، فقد جاء صدور هذا الكتاب بلا شك علامة في تطور طراً في ذلك الزمن على عقلية الشعب، وأمرة على أن شرائح جديدة أكثر ديمقراطية من مجتمع محروم من امتيازات في فرنسا قد تفتحت على الحياة السياسية.

3- نتائج عصر التنوير على السياسة الاستعمارية في الجزائر

عندما اندلعت الثورة الفرنسية (1789) وصدر إعلان حقوق الإنسان والمواطن، واجه الفكر التنويري أول اختبار عملي له في المستعمرات خاصة بعد احتلالها الجزائر عام 1830م. كانت أول المعضلات هل يمكن ه تنطبق حقوق الإنسان على العبيد وسكان المستعمرات؟ لقد طرح السياسي والمفكر الفرنسي ميرابو (Mirabeau) هذه الإشكالية وكان الجواب الاستعماري: لا، لأن تطبيق الحرية والمساواة فوراً على شعوب "غير متمدنة" سيؤدي إلى الفوضى

وتدمير الاقتصاد الإمبراطوري. فكانت النتيجة اختراع الفكر الفرنسي مفهوم "الاستثناء الاستعماري"؛ وهو أن القوانين الطبيعية والحقوق التنويرية حقيقية وكونية، لكن تطبيقها موقوف خارج حدود أوروبا إلى حين "تأهيل الأهالي". ويظهر ذلك جلياً من خلال السياسة الفرنسية في الجزائر فعلى سبيل المثال للحصر صدرت فرنسا في الجزائر مرسوم سيناتوس كونسولت (Senatus-Consulte) عام 1865، والذي نص على أن:

الجزائري المسلم هو فرنسي، ولكنه يخضع للشرعية الإسلامية... ولا يمكنه التمتع بحقوق المواطن الفرنسي كاملة إلا إذا تخلى عن أحواله الشخصية وخضع للقانون المدني الفرنسي".

هذا يعني اشتراط "التخلي عن الهوية والشخصية" مقابل نيل الحقوق الإنسانية التي أفادت فلسفة التنوير بأنها ملازمة للطفل والمواطن بمجرد ولادته. لم تعد أفكار التنوير مجرد أفكار في متداولة في المقاهي الأدبية، بل تحولت إلى أجهزة إدارية استعمارية تم تكرسها فعلياً في الجزائر فتظهر من خلال المكاتب العربية (Bureaux Arabes): تأسست في الجزائر سنة 1844 وشكلها ضباط فرنسيون يتكلمون العربية ومثقفون بالعلوم التنويرية (أثنوجرافيا، تاريخ، جغرافيا). كان هدفهم "دراسة المجتمع المحلي بأسلوب علمي عقلاني" لإحكام السيطرة عليه تحت شعار الحماية والتمدين.

ومن خلال القوانين التعسفية أهمها قانون الملكية العقارية المعروف بقانون فارنييه (Warnier 1873) استخدمت فرنسا أطروحات الفيزياء الاقتصادية التنويرية (Physiocracy) لتفكيك الملكية الجماعية للأراضي (أراضي العرش). حيث اعتبرت أن الملكية القبائلية غير عقلانية وتعطل الإنتاج، فتمت مصادرتها وتمليكها للمستوطنين الأوروبيين باسم "العقلنة الاقتصادية".

كذلك من الانتقادات التي وجهت إلى عصر الأنوار كونها قد وفرت المستندات الإيديولوجية للاستعمار الأوروبي خلال القرن و النصف الأول من القرن العشرين، ويقوم هذا الانتقاد على المنطق التالي " بما أن الأنوار تُقر بوحدة الجنس البشري، فهي تُقر إذن بكونية القيم، ولما كانت الدول الأوروبية مقتنعة بأنها تحمل قيماً أرقى من القيم السائدة عن عند غيرها من الأمم، اعتقدت أن من حقها حمل حضارتها إلى الذين هم أقل حظاً منها، وكي تضمن نجاحها في أداء هذه المهمة كانت مجبرة على احتلال المناطق التي يقطنها سكان تلك الأمم، فإذن قد مهدت الطريق أمام الحملات الاستعمارية اللاحقة".

كوندورسييه مثلاً كان مقتنعاً بأن تنوير جميع البشر مهمة ملقاة على عاتق الأمم المتحضرة. لقد كان يحلم كوندورسييه بقيام دولة عالمية متجانسة، ويعتقد بأن تدخل الأوروبيين يساعد على الوصول إلى ذلك، والحقيقة إن المناظرين لأيدولوجيا الاستعمار الفرنسي سيلجؤون في غضون مئة سنة بعد ذلك إلى هذا النوع من الحجج لتبرير الاستعمار وعلى رأسهم جول فيري. فهم يزعمون أن من واجب الأوروبيين مساعدة الشعوب قليلة الحضارة مثلما من واجبهم تماماً تربية أطفالهم، لقد كتب بول لروا بولي Paul Leroy Beaulieu سنة 1874م، وهو أحد المناظرين للاستعمار ومن المتخصصين في علمي الاقتصاد والاجتماع وأستاذ بالكوليج دو فرانس، حيث ذكر سنة 1891م معتبراً

الاستعمار استجابة لطلب مُلح لأن حوالي نصف سكان الكرة الأرضية في نظره من المتوحشين أو الهمج يناشدون الشعوب المتحضرة التدخل لمساعدتهم.

وليس من قبيل الصدف أن يصبح جول فيري Jules Ferry وهو المناصر لمجانية التعليم وإجباريته في فرنسا الداعية الأكبر للحملات الاستعمارية في الهند الصينية وشمال إفريقيا، بدعوى أن الأجناس الراقية مثل الفرنسيين والإنجليز عليها واجب التدخل في شؤون الآخرين.

وهذا ينطبق تماما مع المارشال بيجو Bugeaud أحد غزاة الجزائر في أواسط القرن التاسع عشر، لم يبحث عن التباهي بصنيعه لما وجد نفسه أرغم أمام مجلس النواب الفرنسي على تحمل مسؤولية المجازر التي اقترفت ضد الجزائريين الذي أكد في خطابه على تقديم المصالح الفرنسية حتى لو كانت على حساب الإنسانية.

وفي كلمة أمام المجلس نفسه سايره توكفيل Tocqueville في ذلك الوقت والذي اعتبر أعمال العنف التي هي ضرورة مطلقة لتوطيد حكم الفرنسي في المستعمرات (طوكفيل، 2008).

الثقة الأوروبية بقوتها المادية وتفوقها الأخلاقي، فضلا عن عجزتها العرقية وعماها، والتواريخ الاستعمارية التي وثقت المشروع الاستعمارية الأوروبي؛ كيف جلبت أوروبا التقدم إلى مجتمعات شمال أفريقيا، منقذة إياها من عتمة ليل الخرافات والجهل. ويتفق كارل ماركس وألكس دي توكفيل، هنا، على أن الدور الفرنسي في الجزائر كان جلب الحضارة والتقدم. من هذه الزاوية، وصفت المقاومة الجزائرية بأنها غير مجدية، وفي الحقيقة معادية للتقدم. ووصفت المجازر مثل مذبح أولاد رياح التي أدت إلى قتل ما بين 500 إلى 1500 جزائري في عام 1845م بأنها محزنة، لكنها ضرورية. (أحميدة، 2014)

رأت فرنسا نفسها بعد أن ألهمتها الثورات الصناعية والديمقراطية، أنها في وضع مناسب على قمة الموجة التي تعبر المستقبل، وأنها وهبت القدرة على إعادة تشكيل المجتمعات بحسب مشيئتها. ومن خلال استخدام أدوات تطهيرية اجتماعية وسياسية جديدة (مثل التعليم والطب والاعتقاد العلماني بالتقدم) ستعمل الدولة المستعمرة على تثقيف المجتمعات المحلية وإعادة قبولتها على درب التقدم. وفي الوقت عينه، سيؤدي انفتاح الاقتصاد المحلي على السوق، بتوجيه وتشجيع من الدولة المستعمرة، إلى إطلاق موارد كانت مجمدة سابقا بيد العادة الميتة، مثلما حصل في أوروبا نفسها.

إن الاستعمار الفرنسي الذي أفرزته في شمال أفريقيا من الناحية العملية أدى إلى كتابة تاريخ مجد الغزو العسكري الفرنسي، ومعجى ما سُمي الحضارة الفرنسية إلى الجزائر وتونس والمغرب على سبيل المثال، نجد أن الجزائر ثم تصويرها في مجلدات الاستكشاف العلمي للجزائر بأنها بلد متأخر ثقافيا، ومتخلف اقتصاديا. حاولت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تطبيق أفكار التنوير والثورة (الحرية، المساواة، الإخاء)، اصطدمت بوقائع السيطرة الميدانية، فنشأ تناقض قانوني فريد ممثل في ازدواجية المواطنة والرعية.

قانون الأهالي (Code de l'Indigénat) تجلت المفارقة في سلب السكان الأصليين حقوقهم السياسية بحجة أنهم "غير جاهزين بعد" لممارسة المواطنة العقلانية والحديثة التي نادى بها الثورة الفرنسية والتنوير.

والأهم من ذلك أن عيبه الأساسي هو طريقته في تصوير عبء الإسلام، على مجتمع مثل عباءة ثقيلة، خانقا المبادرة ومعيقا التغيير. وفي أغلب الأحوال، هيمنت معتقدات ما هو مقبول لدى الاستعمار عوضا من حكم تاريخي أكثر انضباط من الناحية الثقافية. إن مؤرخي الشعوب المستعمرة تصطدم للوهلة الأولى بسياج من الشروط الإيديولوجية التي تعد جزء لا يتجزأ من نمط دفاع النظام الاستعماري. (ساحلي، 2002).

الأنوار كان عصر نهاية المطاف، وعصر حوصلة وتآليف، لا عصر تجديد جذري، فالأفكار الكبرى للأنوار لا تعود إلى القرن الثامن عشر، وهي إن لم تنحدر من العصر القديم تحمل على الأقل آثار أواخر العصر الوسيط وعصر النهضة. والأنوار حركة امتصاص ومفصلة لأراء كانت فيما مضى متناحرة و. لهذا جاء عصر الأنوار يتسم بالعقلانية والتجريبية في الوقت نفسه، هي وريثة ديكرت مثلما هي وريثة لوك، وهي شغوفة بالتاريخ شغفها بالخلود، وبالطبيعة شغفها بالفن، وبالحرية شغفها بالمساواة، وتجد الإشارة أن مكونات فكر الأنوار غارقة في القدم، لكن عملية تركيبها جديدة إذ لم يقتصر الأمر على التنسيق فيما بينها، بل تجاوزه بخروج الأفكار من مظان الكتب إلى عالم الواقع خلال فترة الأنوار بالذات. حمل فكر الأنوار عبئه عدد كبير جداً من المفكرين أنتجت مدارس فكرية ما تزال تتصارع إلى اليوم، ثم إن عصر الأنوار كان عصر مناظرة أكثر مما كان عصر الإجماع.

إن أول سمة واضحة لفكر الأنوار، هو بروز مصطلحين هامين هما التحرر والاستقلال اللذان وضع نوع من القيد المفروض على السلطة، بحيث صار لزاماً عليها أن تكون متناغمة مع القيم الانسانية، بمعنى أن تكون سلطة طبيعية لا سلطة فوق – طبيعية (Surnaturelle)، وعلى هذا الأساس أفرزت الأنوار عالماً بدون أوهام، عالماً خاضعاً من أوله إلى آخره لقوانين فيزيائية واحدة، وكذلك لميكانيزمات سلوكية واحدة فيما يخص المجتمعات البشرية.

إن الوصاية التي كان يعيشون تحت وطأتها الناس قبل عصر الأنوار كانت وصاية ذات طابع ديني في المقام الأول، سميت هذه المرحلة ب هيتيرونومي Hétéronomie ولهذا نجد أن الأنوار ستوجه الانتقادات إلى الدين بالذات قصد فتح الطريق للبشرية حتى تأخذ مصيرها بيدها. لقد وجهت فلسفة الأنوار النقد إلى بنية المجتمع لا إلى مضمون المعتقدات، بل اتخذت موقف يتسم بالتسامح وحثهم على الدفاع عن حرية المعتقد.

4- الخاتمة:

على الرغم من إنجازات الكبرى التي حققها عصر التنوير، إلا أنه راح يتأقلم مع الظاهرة الاستعمارية، ومع الامبريالية الغربية، بل وحتى مع العنصرية أحيانا، إن الخطاب الفلسفي لعصر التنوير كان يشرح كيف يمكن استعمار البدائيين بشكل أفضل وتسيير أمورهم بشكل أحسن بل والسيطرة عليهم.

كما كان نظام الرق يمثل مجد فلاسفة التنوير ومفكرتهم، فعلى الرغم من إدانة معظمهم لنظام الرق العبودي إلا أن بعضهم كان يجد له جوانب ايجابية. لنضرب على ذلك مثلاً فولتير ومونتسكيو. صحيح أنهما كانا يعتقدان بأن الاستعمار والمتاجرة بالعبيد هما مضادان للعقل والعدالة البشرية. ولكنهما كانا يعتقدان أيضا بأن هذين الشيئين هما سبب التقدم المادي في أوروبا. وهو تقدم أدى إلى ازدهار العقل وتراجع العقلية الغيبية الخرافية المسيحية. من هنا الطابع التناقضي للمسألة.

يجب الإشارة بأن لامارتين وفيكتر هيجو وجول فيري والاشتراكي ليون بلوم كانوا يشيدون بالرسالة الحضارية لبلدانهم وضرورة أن تقوم بتحضير الشعوب الهمجية كما كانوا يقولون آنذاك. وبشكل عام كانوا يعتقدون بأن أوروبا الحضارية المستنيرة سوف تجدد البشرية. إن التشكل التاريخي للفكر الاستعماري الحديث لم يكن إلغاءً لفلسفة التنوير، بل كان استغلالاً وإعادة تأويل لأفكارها المركزية (الكونية، العقل، والتقدم). لقد منح التنوير الغرب الأوروبي لغة أخلاقية جديدة وشديدة الإقناع: فلم يعد المستعمر يغزو باسم الذهب أو الإنجيل، بل باسم "نشر النور، وتحرير الإنسان من خرافاته، وإدخاله في العصر الحديث". أيا يكن من أمر فإن الاستعمار شكل أكبر خيانة للتنوير في أعلى مستويات الإنسانية.

أخيرا يمكن الوصول الى حقيقة تاريخية مفادها أن دراسة فلسفة التنوير أصبحت تشكل موضوعا جوهريا وأساسيا لفهم جذور الاستعمار الحديث، وكيف يمكن لأرق النظريات الإنسانية أن تُجبر لتبرير أشد أشكال الهيمنة قسوة.

5. قائمة المراجع:

- ألتوسير، ل. (2006). *مونتسكيو السياسة والتاريخ*. (ت. ن. ذكرى (Trad. بيروت: دار التنوير للطباعة و. النشر والتوزيع).
- الموسوعة العربية الميسرة* (الإصدار، ط2،، المجلد المجلد الثالث). (2001). القاهرة: الجمعية المصرية - دار الجيل.
- اليكس دو طوكفيل. (2008). *نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان*. (ترجمة إبراهيم صحراوي، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- أندري كريسون. (1982). *تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث* (الإصدار ط2). (، ترجمة نهاد رضا، المترجمون) بيروت: منشورات بحر المتوسط و. منشورات عويدات.
- برتراند رسل. (1977). *تاريخ الفلسفة الغربية*. (ترجمة محمد فتحي الشنيطي، المترجمون) مصر: كتبة المصرية العامة للكتاب.
- حاروش، ن. ا. (2009). *تاريخ الفكر السياسي* (éd. دون طبعة). (الجزائر: دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع.
- علي عبد اللطيف أحميدة. (2014). *مابعد الاستعمار و القومية في المغرب العربي (التاريخ و الثقافة و السياسة)* (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ف. فولغين. (2006). *فلسفة الأنوار* (الإصدار ط1). (ترجمة: هنرييت عبودي، مراجعة: جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- فال، ج. (1988). *الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر* (éd. ط4). (ت. ا. خوري (Trad. بيروت: منشورات عويدات. كروزيه، إ. م. (s.d.).
- لابروس، ر. م. (1994). *أريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر* (éd. ط3، Vol. 3، المجلد الخامس). (ش. م. كروزيه & Éd.، ي. أ. داغر (Trad.، بيروت، منشورات عويدات.
- محمد شريف ساحلي. (2002). *خليص التاريخ من الاستعمار*. (ترجمة محمد هناد ومحمد الشريف بن دالي حسين، المترجمون) الجزائر: منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال.
- مونتسكيو. (1953). *روح الشرائع* (Vol.، ج1). (ت. ع. زعيتر (Trad. القاهرة، مصر: دار المعارف.
- Montesquieu, C. d. (s.d.). , *De L'esprit des lois, chapitre V, 1758*. Consulté le 07 12, 2024, sur Ecole alsacienne: https://archives.ecole-alsacienne.org/CDI/pdf/1400/14055_MONT.pdf
- Roland MOUSNIER, e. E. (1967). *Le XVIIIe siècle L'époque des " lumières " (1715 - 1815. Revue Histoire générale des civilisations, tome 5, p. P 101*